الشخصية الرئيسية . فنعرف ان سعيدا ينتسب الى مسبية قبرصية من حلب ، من سبايا تيمورلنك ، سباها جده الاكبر أبجر بن أبجر . ويفسر كنية العائلة : المتشائل على انها ادغام للكلمتين المتفائل والمتشائم . يبدأ الكتاب بأسلوبية تشابه رواية السير البطولية ، لنكتشف بعد قليل ان البطل ليس بطلا ، بل هو انسان عادي يقوده حس التكيف . هذا الحس هو الذي يحمل البعد الشعبي الخاص في الرواية بأسرها . يحاول المتشائل بعد هجرته الاجبارية من فلسطين العودة اليها . فتبدأ رواية المأساة الجماعية في ظل ايقاع فكاهي : « فأنا أول انسان على ما أعهد ، أنقذه حمار محرن لا يسابق ريحا » . يذهب بحثا عن سفسارشيك المسؤول الصهيوني الذي أوصاه والده بالبحث عنه . ثم يقاد الى عكا لينام في المسجد . هنا نكتشف مأساة العائدين — المبعدين . ونستمع الى قصص القرى العربية التي دمرت . يأخذ التداعي مجراه الاساسي باعتباره سياقا ، فيتذكر سعيد قصة حبه ليعاد عندما كان طالبا ، ثم يخرج الى شوارع عكا ، فيتذكر محاولته الفاشلة للذهاب الى بيروت مع اصدقائه لجلب الاسلحة عام ١٩٣٩ . ثم يروي اسرار عائلته واصرارها على البحث عن الكنز . في ديماس عكا، يعود الحس الشعبي الى الارتفاع، فنعيش في أجواء حكاية شعبية من حكايات الخوارق تروي لقاءه برجل الفضاء الذي يلقي عليه درسا في النضال . غير ان ضرورات التكيف تفرض عليه تعاملا مع العدو في اتحاد عمال فلسطين . ويسوقنا تطور الاحداث الى مجيء يعاد الى منزله في حيفا بحثا عن والدها الذي سلمه المتشائل او والده وهو يضع على رأسه كيسا من الخيش حتى لا يعرف . فيأتي البوليس ويطردها وراء الحدود .

يريد هذا التلخيص السريع والمبتسر للكتاب الاول التأكيد على ثلاث مسائل :

١ — تقديم الشخصية الشعبية بوصفها تمتلك احساسا هائلا بالتكيف ، هذا النوع من التكيف التعاملي مع المحتل ، سوف يكشف تناقضاته الداخلية واستحالته ، ليحل مكانه تكيف آخر من طبيعة مقاومة .

٢ — التداعي **المكاني** الذي يفرض منطقه على زمن الرواية . فالامكنة هي مستودع الذاكرة الجماعية التي تعيد تأريخ نفسها انطلاقا من هنا .

٣ — الاشارة الى بذرة الرمز الاساسي الذي سيوقع احداث الرواية . فالكنز الذي تبحث عنه عائلة المتشائل يأخذ حجما مختلفا مع زوجته باقيه وابنه ولاء ، ليصبح اشياء الارض وقد استحالت سلاحا وقتالا .

نتابع في الكتاب الثاني « **باقية** » مغامرات سعيد المتشائل . لكن هذا الكتاب أقل انسيابا من الكتاب الاول ، لانه يتمحور حول مسألة واحدة — الزواج من باقية الطنطورية والبحث عن كنزها الضائع — فتأتي جميع العناصر التفصيلية التي يحسن حبيبي صياغتها بحس نادر يمزج الفكاهة بالمأساة لترفد هذا الجانب الاساسي . « في الربيع التقيت الطنطورية ، وفي الخريف ضيعت ابنها ، وحياتي بينهما خلسة من الزمان ». ثم تأتي العناصر الثقافية — كنديدو اخوان الصفاء ، ... لترفد العمق التاريخي للاحداث ، ولتقعر المستوى المباشر بامتداد تاريخي . نبدأ بالبحر والصيد حيث تم اللقاء بباقية ، لننتقل أكثر اللحظات مأساوية في حياة عرب « اسرائيل » : « فكلما تكاثرت ليالي حزيران على العرب ، تكاثر صيادو السمك الهواة منهم ، فقيل يهربون من هموم أزواجهم » . لقاء المتشائل بالطنطورية ومن ثم زواجهما ، يفجر لحظة السر — الكنز في الرواية على شكل من الممارسة السياسية . فبعد محاولات سعيد الفاشلة للعثور على كنز زوجته وتركيز المؤلف الشديد على موضوعة الكنز ، حين يقذف بنا الى ما بعد ١٩٦٧ مباشرة ليروي قصة ثريا عبد القادر مقبول التي عادت الى بيتها ووجدت كنزا مطمورا سرقته منها الحكومة لقاء وصل . ويصل التوتر ذروته حين يتمرد ولاء ويكتشف الكنز الذي هو عبارة عن بنادق وينضم الى الفدائيين . ويطوق في المغارة . فيذهب اليه والداه لاقناعه بتسليم نفسه . هنا يقيم المؤلف لاول مرة في روايته هذه ، حوارا مأساويا بالغ التوتر والدلالات ، ينقل هموم المواطن البسيط واحساسه الثوري الحاد . ثم تلتحق به أمه . هنا نفاجأ بخاتمة تشبه خاتمة الحكاية الشعبية . اذ يتمكن الولد وأمه من الهرب عبر البحر . وينضمان الى المقاومة .

الكتاب الثالث — **يعاد الثانية** ، هو اكثر اجزاء هذه الثلاثية طرافة ودلالات . فهو الدائرة الثالثة التي تستوعب الدائرتين الاولتين ، لتقوم بالغاء الحدود بين الخيال والواقع ، بين الجنون وعدمه ،